العلاقات السعودية الروسية وإرث الحجاز المُحتلّ

(1-2)

نشأت العلاقات السوفياتية ـ السعودية صدفة! فقد احتل السعوديون الحجاز ووجدوا الروس هناك يبادرون فيهنؤون! وبعد ثلاثة عشر عاماً، وبعد فشل الملك السعودي في) بيع) الوجود الروسي في الحجاز مقابل مساعدات بريطانية، تمّ قطع العلاقات بين البلدين عام 1938 لتعود العلاقات من جديد بعد نصف قرن تقريباً أواخر الثمانينيات وبعد تفكك الإتحاد السوفياتي نفسه. ومنذئذ وحتى بداية سبتمبر 2003 لم تكن العلاقات بين جدة وموسكو متميزة بل كانت أقلّ من عاديّة، فهل هذا المختصر المبسط للعلاقات يمكن أن يتحوّل الى تحالف استراتيجي بين البلدين؟ وهل يفيد في حماية النظام السعودي الذي بدأ يترنّح بسبب المشاكل البنيوية ذات الإنعكاسات شديدة الخطر، والتهديدات الغربية الخارجية؟

الحجاز، كان محور النشاط السياسي بين موسكو والرياض. في هذا البحث الوثائقي استعراض للعلاقات السوفياتية السعودية بين عامي 1926-1938 .

الروس يُهنئون

سقطت جدّة تحت وطأة الإحتلال في يناير 1926، ودخلها ابن سعود فوجد أن هناك تمثيلا دبلوماسيا رسميا راسخا منذ فترة طويلة، ووجد مؤسسات قائمة بالفعل، وسفارات وقنصليات وما أشبه. فرأى الملك السعودي أن يحتفظ بكل المؤسسات الهاشمية، وبكامل التنظيم الإداري في الحجاز، بما في ذلك العلاقات الخارجية مع كل من أقام علاقات مع الأشراف ممن لهم قنصليات في جدة، ومن بينها القنصلية الروسية .

لم تقلق القنصلية الروسية عبد العزيز ابن سعود حين دخل جدة واحتلّها، بل على العكس، كان القنصل السوفياتي أول من نقل اعتراف حكومته به ملكا على الحجاز في السادس عشر من فبراير 1926، طالبا في نفس الوقت أن يبقى هذا الاعتراف مكتوماً حتى تقدم بريطانيا اعترافها رسميا به! فالسوفيات الثوريون والتقدميون لا يريدون من خلال اعترافهم هذا أن يبدو في أعين أصدقائهم ومؤيديهم في العالم بمظهر من يسارع إلى مصافحة ملك رجعي استبدادي ثيوقراطي. وحتى مارس 1926، فإن الملك السعودي لم يحصل إلا على اعتراف شفوي كحاكم للحجاز من القنصلين الفرنسي الإيطالي .

ومهما كان السبب، فإن استغراب البريطانيين لم يعادله شدة إلا غضب الملك عبد العزيز، الذي أطلع أصدقاءه البريطانيين على الاعتراف الروسي وعلى الطلب الذي رافقه، ثم سارع إلى نشره في جريدة (أم القرى)، الصحيفة الوحيدة والرسمية التي خلفها الشريف حسين وابنه علي بعد رحيلهما، وذلك في 1344/8/3هـ الموافق 1926/2/16م، رغم طلب كريم حاكيموف، الممثل الروسي، عدم النشر. حسب أم القرى، قالت رسالة الإعتراف الروسية من حاكيموف: (إستنادا إلى أمر حكومتي.. لي الشرف بأن أعلم جلالتكم بأن حكومة الجمهورية السوفياتية، عملا بالمبدأ الأساسي المتعلق باستقلال وحرية الأمم، واحتراما لإرادة شعب الحجاز التي عبر عنها في بيعته لجلالتكم ملكا على الحجاز، تعترف بجلالتكم ملكا على الحجاز، وسلطانا على نجد وملحقاتها. وبناء على ذلك، تعتبر الحكومة السوفياتية نفسها أنها تقيم علاقات دبلوماسية طبيعية مع حكومة جلالتكم .).

في أول قضية بعد احتلال جدة جاء أنه في بداية شهر فبراير 1926م، انزعج البريطانيون من تقارير وردتهم حول شخص تركي بعثته حكومته لليمن، يقول الإنجليز أنه يهدف إشعال الفتنة فيه ضد الإنجليز، وأن هذا التركي سيحاول إقناع ابن سعود بأن يشعل الأزمة في عدن ضد البريطانيين للتغطية على هجوم متوقع سيشنه الأتراك على الموصل في العراق.. وتقول وثائق الإنجليز بأن الشخص لتركي ويدعى (راغب بيك) على اتصال بحاكيموف القنصل الروسي في جدة، ومن خلال الرسائل مع تشيكيرن. وأخيرا يتبين أن راغب مكلف بترحيل الموظفين الأتراك من اليمن ليس إلا .

لقد بدأ التحرك البريطاني مبكراً مستهدفاً وبصورة مباشرة اقتلاع القنصلية الروسية بالدعايات والإشاعات والتلميحات لابن سعود بأن يضيق على الروس لأنهم يثيرون الدعايات ضد البريطانيين، أو لأنهم يلوثون عقول الحجاج بالعقيدة الشيوعية !

في 1927/3/15 نشرت صحيفة أم القرى الرسمية بلاغاً جاء فيه نفي لأخبار عن نشاطات شيوعية بين الحجاج! نشرتها صحف مصرية على علاقة بالإنجليز، وقال البلاغ أن تلك الأخبار عارية عن الصحة وأن النشاطات الشيوعية (غير موجودة في أي جزء من أجزاء الحجاز) وأن حكومة الحجاز (السعودية!) كتبت إلى الحكومة الهولندية، تطلب إجراء التحقيق للتعرف على مصدر هذه الإشاعات الكاذبة. وقد تلقت حكومة الحجاز رد القنصل الهولندي بعد إجراء التحقيق المناسب، وهو ينكر الأمر كله، ويبين أنه لا المفوضية الهولندية في مصر، ولا أي فرد من عناصرها، قدم تقريرا بهذا المعنى. وقد علق مائير، القائم بأعمال القنصل البريطاني في جدة على البلاغ السعودي بأنه (إنذار للروس، وطمأنة للدول الكبرى الأخرى. ويمكن النظر إليه على أنه إنذار للروس .).

في حج عام 1927 أخّر حاكيموف، الممثل الروسي في جدة إجازته السنوية بسبب موسم الحج، حيث كان مؤملاً أن تأتي أعداد كبيرة من الحجاج الروس، قيل في البداية عشرة آلاف حاج، ثم خفض الرقم الى أربعة آلاف ثم ألفان! الأمر الذي جعل الممثل منزعجاً من حكومته

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي خذلته. كان مخططا أن يكون هناك معرض روسي تجاري، وقبل أن تصل سفينة الحجاج الروسية، قدم القناصل البريطاني والهولندي والمصري إلى وزير الخارجية السعودي احتجاجات شديدة اللهجة محذرة من النشاط الشيوعي! فأكد لهم وزير الخارجية فيصل بأن الأفكار الشيوعية لن تنتشر بين الحجاج، ووعد بأن يفرض مراقبة شديدة ودقيقة للغاية. حتى السفينة التجارية الروسية التي حملت معرضاً للبضائع الروسية، رفضت سلطات الجمارك السعودية السماح لها بإنزال نحو مائة صندوق من البضائع دون تفتيشها .

ولأن المسألة لا تعدو مبالغة بريطانية ضد منافسة الروس، كتب القنصل البريطاني الجديد حينها (ستونهيور بيرد) الى رؤسائه في 1927/8/1 (ليس هناك من سبب للاعتقاد بأن الحجاج الروس الأربعمائة قد نجحوا في إدخال أية دعاية بولشفية، أو أنهم حتى قاموا بمجرد محاولة في هذا السبيل، وما أطلق عليه اسم: المعرض التجاري.. لم يكن ناجحا، فقد عرضت فيه نماذج من المنتجات الروسية بالذات، مثل السماور والكافيار، إلا أن معظم المعروضات كانت تباع في السوق العامة.. مئات اليارادات من الأقمشة التي لا يمكن أن تباع في هذا الوقت من السنة، وكميات هائلة من الدقيق التي لاقت رواجا فوريا .(

السلطات البريطانية والهولندية تعتبر أي نشاط معادٍ للإحتلال البريطاني عملاً شيوعياً، وكل من يحرض على الثورة ضد الإحتلال شيوعياً حتى وإن جاء على ظهر مراكب السفن للحج! والشيوعية في تلك الأيام مثل حكاية الإرهاب هذه الإيام، تلبّس كلّ من يعادي الإحتلال والعدوان. لقد تم القبض في حج 1927 على تسعة جاويين في جدة قيل أنهم شيوعيون! اقرأ ما كتبه ستونهيور مبالغاً حول الأمر: (أحدث اعتقال الشيوعيين العتاة ـ راجندا تانجسي، ومحمود صالح مردم، ومعهما سبعة آخرون ـ اهتماماً بالغاً ومثيراً يوم تم الاعتقال في 4/يونيو/1927م، وقد ثبت أنهم كانوا ينشرون الأفكار التحريضية بين مواطنيهم، حتى أنهم حاولوا إقامة مطبعة خاصة بهم لتسهيل نشر الدعاية الشيوعية !(

في أغسطس 1928م غادر حاكيموف جدة متوجها إلى موسكو، وليس في نيته العودة إلى جدة. والسبب كما يقول زميله البريطاني: (إن تردده في الاستمرار بعمله أمر ممكن فهمه بسهولة، فهو من مواطني سيبيريا، ولم يكن يملك اللياقة الصحية لتحمل الطقس هنا، كما فقد إبنا صغيرا من أبنائه في جدة، وإضافة إلى ذلك فقد كان حاكيموف يبدو غير قادر أن ينجز عملا ما باعتدال: فهو إما أن يسكر حتى يصل إلى حالة الإنهيار العصبي، أو يمتنع نهائيا عن تناول المسكرات. ما عدا ذلك.. كان حاكيموف شخصا لطيف المعشر، مرحا، وسيُفتقد حضوره في جدة !(

هل يمكن بيع الوجود الروسي في جدة؟

توصل الملك عبد العزيز إلى قناعة مفادها أن الإنجليز راغبون في وضع حد للوجود السوفياتي في الحجاز، وقرر بناء على ذلك، أن يبيع هذا الوجود إلى بريطانيا! أرسل مستشاره الشخصي حافظ وهبة (وهو مصري الأصل) إلى القاهرة لمقابلة اللورد لويد المندوب السامي البريطاني في مصر، وعرض عليه العمل معاً لكسر شوكة النشاط الروسي في الحجاز.. سُرّ البريطانيون كثيرا لهذا العرض، وبدأوا يعدون العدة لإرسال كشوف سرية بأسماء من كانوا يقومون بمثل هذه النشاطات (البولشفية المعادية لبريطانيا) إلى ابن سعود كي يتولى تصفيتهم. تقول وثيقة بريطانية مؤرخة في 1928/1/19 (ألمح حافظ إلى أن ابن سعود ربما يكون مستعدا لأن يبعد كل النفوذ البولشفي من الحجاز مقابل اتفاق مرض، للحيلولة دون تنامي النفوذ الإيطالي في اليمن .(

لقد كان النشاط الروسي وهماً متضخماً في أذهان الإنجليز، فأراد الملك السعودي البارع في لعبة السياسية أن يبيعهم ذلك الوهم، فما هو الثمن؟ لقد كتب ابن سعود رسالة الى لويد ألمح فيها الى العروض التجارية المغرية الروسية، وكأنه أراد القول بأنه سيرفضها إذا ما حصل على دعم بريطاني. هذا ما فهمه مسؤول قسم السعودية في الخارجية البريطانية، فالملك (على استعداد فعلي للحد من نشاطات البولشفيك التجارية، ولمقاومة الدعاية البولشفية في ممتلكاته، مقابل مساعدات يتلقاها من الحكومة البريطانية .(

ورأى وزير الدولة البريطاني، بأنه لا يتوقع إلا القليل من الخطر على المصالح البريطانية، نتيجة التغلغل البولشفي في شبه الجزيرة العربية، إلا أن الفرص التي يتيحها موسم الحج لتسريب الدعاية المضادة لبريطانيا بين الحجاج، هي مصدر خطر حقيقي، كما أن هذه الفرص تشكل خطرا على ابن سعود نفسه. ولم يشك الوزير في قدرة ابن سعود على كبح جماح النشاطات البولشفية في أراضيه، إذا ما وجد أن القيام بمثل هذا الإجراء سيكون في صالحه. كان الرأي الأولي لدى الخارجية البريطانية يفيد بلا ممانعة من جهة) أن يعرض على ابن سعود شكلاً من أشكال التسهيلات التجارية والمالية، خاصة فيما يتعلق بالإمدادات العسكرية، والتي ستشكل إغراءاً إضافياً بالنسبة له .(

في خضم النقاشات حول ثمن القضاء على الوجود الدبلوماسي الروسي، قال بعض السياسيين البريطانيين أن ما يفعله الملك تجاه الروس هو رد جميل لما فعلته الحكومة البريطانية لابن سعود ودعمه في إقامة مملكته، وهذا ما قاله وهبة للورد لويد. لكن القنصل في جدة كتب تحليلاً وأرسله في 1928/4/9 قال فيه: (أرى أن الملك ابن سعود يحاول جاهدا أن يجني ثمارا كبيرة من موقفه تجاه البولشفية، وذلك بخلق الانطباع بأن الإجراءات الحازمة والقوية التي اتخذتها حكومة الحجاز مؤخراً.. إنما تمت خدمة للمصالح البريطانية، ورغم أنه مما لا شك فيه أن الإجراء وتوقيته كانت تحدوه رغبة بعدم القيام بعمل يتعارض مباشرة مع مصالح بريطانيا.. رغم هذا فإن للملك أسبابه القوية والكافية الخاصة به للقيام بهذا الإجراء). من هذه الأسباب ما يتعلق بتجار جدة: (إن التجار الحجازيين، والذين يمارسون نفوذا كبيرا بالفعل، نتيجة استعدادهم ـ وإلى حد كبير ـ لدعم خزينة جلالته الفارغة تقريبا وقت الحاجة، يقيمون مكاتبهم الرئيسية في بومباي غالبا..

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولهذا فإنهم سيفقدون الكثير إذا ما تحول خط سير التجارة من الهند إلى أي بلد آخر. ثم إن محاولة السوفيات إدخال سلع مثل الدقيق والسكر بأسعار تنافس تلك التي تباع بها المستوردات الهندية، قد قوبلت بأشد المعارضة من جانب التجار المحليين، وقد عزز من معارضة هؤلاء.. كون أهم شخصية بينهم هو حاكم جدّة نفسه .(

أما السبب الثاني فيتعلق بموسم الحج نفسه: (ربما يبدو للوهلة الأولى أن تلوث الحجاج بالدعاية الشيوعية خطر يجب أن يقلق حكومات الهند، وجزر الهند الشرقية الهولندية، وماليزيا، ومصر، أكثر مما يقلق ابن سعود نفسه.. إلا أن مجرد الشك في أن يكون الحجاج قد تشربوا سم العقائد والأفكار الشيوعية سيكون كافيا ليبرر سحب الحكومات المتضررة للموافقات والدعم الخاص الذي تقدمه للحج، وقد أكدت مرارا في تذكير وزير خارجية الحجاز بهذا الأمر، وأنا على قناعة بأن الملك متيقظ لمخاطر تلاشي شعبية الحج، إذ ليس فقط يعتمد ازدهار الحجاز على موسم الحج، ولكن وجود الحجاز بحد ذاته يعتمد عليه أيضا). وفي ختام تقريره يوضح بيرد أن: (الممثل السوفياتي لا يخفي خيبة أمله للنتائج الهزيلة التي تحصل عليها مفوضيته من إقامتها في الحجاز. كما أن آخر محاولات وجهود السوفيات لكسب الود والنفوذ عن طريق إدخال وتوزيع المواد الغذائية الرخيصة، قد قوبلت بنفس الصد الحاسم والقاطع .(

ويعترف بيرد بأن (الوصول إلى الحجاج هو أصعب مما يبدو بكثير.. فمنذ لحظة وصولهم إلى جدة، يدخلون كل حسب جنسيته.. تحت إشراف المطوفين أو وكلائهم، ولا يستطيع أي شخص من جنسية أخرى أن ينضم إلى غير مجموعته، كما أن أي محاولة يقوم بها أي شخص غير مخول لزيارة تلك المجموعات من الحجاج، ستنكشف في مكة على الفور، حيث تكون عملية الرصد والمراقبة الدقيقة سهلة، نتيجة تجميع كل الحجاج في منازل قريبة من الجامع. ومع هذا، قد تحاول المفوضية السوفياتية بالطبع، اتباع طرق أخرى غير تسميم عقول الحجاج، للمساهمة في إقلاق راحة وسلام العالم !(

في هذه الأثناء ورد خبر بأن بأن الحكومة السوفياتية تقترح إرسال كمية كبيرة من البترول والدقيق والسكر والمواد التموينية الأخرى إلى جدة خلال موسم الحج لتوزيعها مجانا على الحجاج، وذلك لدعم جهود الدعاية، وإضافة إلى ذلك فقد تم الإعداد لإرسال بعثة من اختصاصيّي الدعاية، اختيروا خصيصا، مع هذه المواد التموينية للعمل بين الحجاج. أرسلت هذه المعلومات الى ستونهيور بيرد في جدة في 1928/2/21 ليتخذ اللازم .رد بيرد من جدة في 6/ 3/ 1928م قال فيها: (أعتقد أن السلطات المحلية يمكن الوثوق بها بأن تقوم بوضع العراقيل في عجلات الخطة السوفياتية، سواء فيما يتعلق بالتوزيع المجاني للمؤن الغذائية، أو بإنزال غير المرغوب فيهم في جدة. فيما يتعلق بتوزيع المؤن.. فإن احتمالات السماح بذلك قليلة أو معدومة، لأنه يتعارض مع أرباح القائمقام، والذي يعد أكبر تاجر هنا.. إضافة إلى كونه حاكم جدّة. وفيما يتعلق بنزول اختصاصيي الدعاية إلى الشاطئ، فقد أكد لي الدملوجي ـ مسؤول الخارجية ـ في حديث سري خاص، أنه إذا ما أمكن معرفة أي شيء محدد ضد أي روسي، فإنه لن يسمح له بالنزول من السفينة. والحكومة هنا في موقف قوي جدا بالفعل، فيما يتعلق بالرعايا السوفيات .(ويضيف بيرد بأنه سيذكر الدملوجي بوعده إذا ما اقتربت الباخرة الروسية، وأنه سيهدده بمنع الحجاج الهولنديين والبريطانيين (أي الهنود والأندونيسيين .(

وفي الجملة كان رأي القنصل بيرد أن (لا داعي للخروج عن سياستنا بأن نقدم لابن سعود أي مكافأة خاصة بالمقابل، إن استعداد الهند لحجب تشجيعها الناس من أداء فريضة الحج، يحتمل أن يكون أقوى عامل حث خارجي للحكومة الحجازية على إيقاف مثل تلك الدعاية في الحجاز). لكن وزير الخارجية حين سمع وجهات النظر كلها، رجح أن الإغراءات الكثيرة التي تقدم لابن سعود قد تتغلب على علاقاته الودية مع بريطانيا .

لقد رأى الملك السعودي التعاطي مع الملف السوفياتي بشكل مبهم وغامض، فهو لا يريد أن يبدو وكأنه يهدد به لاستحصال دعم بريطاني مالي، ولا يريد أن ينهي الوجود الروسي بلا ثمن، كما لا يريد أن يكون شديد الصراحة والإلحاح في الطلب، بل اعتمد حسب ما قيل على الكرم البريطاني، ولكن الإنجليز البخلاء هم الذين دفعوا ابن سعود دفعاً ليعلن ما يريده بالتحديد .

التقى فؤاد حمزة، القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية بالقنصل البريطاني في جدة، وأوضح السياسة التي يتبناها السعوديون تجاه الحكومة السوفياتية ودوافعها .تتلخص رؤية السعوديين حينها ـ كما يشير بيرد في رسالة منه الى رؤسائه في 1929/2/9م ـ بأن (الملك يدرك تماما أن الحجاز يمكن أن يكون بسهولة مركزا للدعاية المضادة لبريطانيا من قبل المعتمدين السوفيات، الذين قد يحاولون زرع أفكارهم وآرائهم في عقول الهنود من الحجاج، وبناء على ذلك تلقت حكومته تعليمات صارمة لمراقبة تحركات المعتمدين، والتأكد من أنه لا تجري أية دعاية ضد بريطانيا العظمى). ورأى فؤاد حمزة بأن من مصلحة بريطانيا وابن سعود مراقبة النشاط السوفياتي بعناية كبيرة، كما طمأن بيرد بأنه ليس هناك ما يخشى على هذا الصعيد. ولكنه استدرك بأن الحكومة السوفياتية طورت مخططا أكثر مكرا ودهاء لكسب ود الشعب والحجاج في الحجاز، ولتقويض المصالح البريطانية، وذلك بإرسالها إلى الحجاز شحنات من المنتجات الزراعية والسكر والدقيق وغير ذلك، لبيعها بأسعار أقل بكثير من تلك المتداولة في السوق للسلع المشابهة والمستوردة من الهند. وأضاف بأنه (حتى الآن يقوم الملك ابن سعود بوضع كل العراقيل الممكنة في طريق تفريغ وبيع البضائع السوفياتية في الحجاز، وآخر مثل على ذلك هو حادثة الباخرة السوفياتية كوميونيست التي وصلت إلى جدة وهي محملة ببضائع كثيرة ..فقد غادرت جدة دون أن يسمح لها بتفريغ كيس واحدة .(

وتابع فؤاد حمزة، أنه من وجهة نظر الملك السعودي فإنه (كان يتصرف بهذا الشكل ضد مصلحة البلد التجارية، بمنعه استيراد السلع الرخيصة، كما كان يعرض نفسه لانتقادات الحجاج الذين كانوا يطالبون بدفع أسعار أعلى ثمنا للمنتجات الهندية. لقد كان هدف الملك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوحيد من اتباع هذه السياسة، رغبته في أن لا يفعل شيئا قد يضر بالمصالح البريطانية بأي صورة من الصور.. وفي نفس الوقت لم يكن الملك مرتاح الضمير، لأنه بعمله هذا إنما يسبب خسارة مادية لشعبه بالذات .(

وهنا بالضبط قال فؤاد بأن إخلاص وولاء الملك للصداقة المديدة مع بريطانيا العظمى تتطلب دليلاً (على تقدير الحكومة البريطانية لهذا الموقف. وذلك بالتعويض عن الخسارة المادية التي تسببها سياسته للبلاد). وحين سأل بيرد فؤاد حمزة عن الشكل الذي تقدر به بريطانيا ابن سعود (أجاب فؤاد بأن الملك يترك ذلك لكرم الحكومة البريطانية، وعبر عن رغبته في تحاشي أي مظهر من مظاهر المساومة، ولكنه يتمنى ان تكون الحكومة البريطانية مدركة تماما بأن سياسته الحالية التي يتبعها خدمة لمصالح بريطانيا العظمى إنما تعود بالربح على الحكومة البريطانية وبالخسارة عليه، وهو ـ أي الملك ـ على يقين من أن الحكومة البريطانية ستدرك عدالة مطلبه بأن يعدل التوازن حتى يستطيع البرهنة لشعبه بأن بعض الفائدة قد عادت عليهم من رهانه على صداقته لبريطانيا .(

ومارس بيرد مزيداً من الضغط على فؤاد حمزة ليحدد بصورة أكبر ما يطلبه الملك (قال إنه يعتقد بأن عقد معاهدة تجارية، يكون فيها ميزان الفائدة في مصلحة الحجاز، سيفي بالمطلوب، إلا أن الملك كان يرغب بأن يأتي الاقتراح من جانب الحكومة البريطانية .(لم يجب بيرد بسوى وضع آراء الملك أمام مسؤوليه لتقرير ما يفعلونه .

وإذا كان فؤاد حمزة قد طلب عقد اتفاقية تجارية لصالح ابن سعود كثمن لتصفية الوجود الروسي، فإن حافظ وهبة طلب إعادة راتب الدعم السنوي الذي كان يبلغ نحو 60 ألف جنيه استرليني. لقد طلب اللورد لويد من القاهرة من حافظ وهبة أن يحدد بالضبط ما يريده الملك السعودي ثمناً لإنهاء الوجود الروسي في الحجاز، وقد تلقّى لويد ردّاً وصفه في رسالة منه الى أوستن تشامبرلن في خارجية لندن في 1928/3/22، بأنه ردّ قصير ومبهم. وكان حافظ وهبة قد أسرّ لمسؤول الإستخبارات في السفارة البريطانية وبصراحة كاملة بأن (ما يريده ابن سعود هو راتب دعم شهري أو سنوي، وأن وضع الملك ضمن واقع الأمور الحالي في شبه الجزيرة العربية يزداد صعوبة، ثم يشرح حافظ الأمر بأن البدو وقبائل نجد يعيشون على الغزو والاقتتال، ولكن هذا انتهى بعد سيطرة الملك على معظم البلاد، ولم يعد مسموحا له أن يهاجم الدول شمالا أو شرقا أو جنوبا، لأن كل هذه الدول واقعة تحت الانتداب أو الاحتلال البريطاني المباشرين.. وهكذا لا بد من فعل شيء لإرضاء العناصر القبلية الجائعة وغير الخاضعة للقوانين.. إن أكثر ما يبقي القبائل خاضعة للنظام هو الهدايا والكرم السخي.. ومن سوء الحظ فإن موارد ابن سعود المالية ضحلة وضئيلة، ومما لا شك فيه أنه يواجه ضائقة مالية كبيرة، ثم أضاف الشيخ منهيا حديثه، بأن راتب الدعم السابق الذي كان يدفع لابن سعود، لن يكلف الحكومة البريطانية وحكومات الانتداب، إلا أقل من النفقات التي يستلزمها نقل القوات والطائرات والسيارات المدرعة وغير ذلك من الإجراءات الدفاعية ضد قبائل نجد الجامحة، والتي يواجه ابن سعود حاليا مصاعب كبيرة في التحكم فيها وضبطها). لكن وهبة (لم يُعطَ ـ بالطبع ـ أية تشجيعات بحيث يتوقع أن تجدد بريطانيا دفع راتب الدعم لابن سعود .(

خلال هذه الفترة مرض حافظ وهبة وأجريت له عملية جراحية في القاهرة، وفي بدايات عام 1929م عاود الإتصال حول الموضوع، وجاء برسالة من الملك الى اللورد لويد المندوب السامي البريطاني في القاهرة، تطالب بتسهيلات ومعاهدة تجارية. نص رسالة ابن سعود 26/6/1347هـ) واضحة صريحة يقول فيها: (إن العديد من الدول الأجنبية منهمكة في الحجاز لطرد التجارة البريطانية وتأمين أسواقنا لصالح تجارتها، وأعظم هذه الدول نشاطاً هم السوفيات.. وكما كنّا قد أعلمناكم في العام الماضي، حاولنا دحر نشاطاتهم.. ومنعهم من تحقيق أهدافهم، على أمل أن تعقد حكومة بريطانيا معنا معاهدة تجارية، بحيث تحصل حكومتنا وشعبنا على بعض المزايا مقابل مقاومتهما للنشاطات السوفياتية، إلا أن الحكومة البريطانية لم تُعْر القضية أي انتباه، ولم تدخل في أية مشاورات معنا. وفي هذا العام.. عاد السوفيات إلى الهجوم، ولا هدف لهم إلا طرد البضائع البريطانية، والحلول محلها ببضائعهم، ليس فقط في الحجاز ولكن في اليمن أيضا، وربما وراء وأبعد من ذلك، ولقد قاومناهم حتى الآن). وأضاف الملك: (نود أن نعرف بكل صراحة ووضوح، ما هو الثمن الذي ستكون الحكومة البريطانية على استعداد لمنحه لنا مقابل حمايتنا للتجارة البريطانية في بلادنا، ومقابل عرقلتنا لتجارة الأقطار الأخرى، وخاصة السوفيات؟ إذا كانت الحكومة البريطانية مهتمة بهذه القضية، فإننا نطلب أن تشرع في مفاوضات معنا.. وإذا لم تكن القضية تهمها كثيرا، فإننا لا نرغب في إزعاجها بأي أمر، إلا إذا كان ذا أهمية بالنسبة لها .(

رأى اللورد لويد صعوبة في عقد معاهدة خاصة بابن سعود لا تثير الدول الأخرى بمزاياها الخاصة. واحتمل لويد أن يكون الملك السعودي يريد أمراً آخر له علاقات بثورة الإخوان وضد الأردن والعراق الهاشميين، وهو ربما يبحث عن دعم وتعاطف بريطاني على شكل راتب دعم وأسلحة وذخائر أو الحدّ من نشاطات الأشراف. لكن رسالة ابن سعود رغم وضوحها وجدت غامضة الى حد ما أيضاً، فلربما ـ كما يقول لويد ـ كان الملك يحاول اكتشاف إمكانيات تحالف مع الإنجليز أكثر شمولاً. وحين ناقش لويد مع وهبة رسالة الملك في 3 يناير 1928 والمصاعب التي تواجه أية اتفاقية تجارية تقوم على التمييز بين دولة وأخرى، طلب منه (أن يحاول جاهداً في التأكد وبدقّة أكبر، مما يدور بخلد الملك ابن سعود .(

أيدت الخارجية البريطانية رأي لويد، وطالبت بإيضاحات أكبر من الملك السعودي عمّا يريده. لكن أحد المسؤولين في الخارجية البريطانية أيد تفضيلاً للسعوديين في معاهدة تجارية تستطيع مجرد (التأمين) ضد أية محاولات روسيّة للحصول على معاهدة مع الحجاز تكون في صالح السوفيات. وقد رأى وزير الخارجية البريطانية أوستن تشامبرلين أنه ليس هناك ضرورة للرد على رسالة ابن سعود إلى أن يحصل حافظ وهبة على معلومات إضافية حول الطلب السعودي، وسأل عن رأي وزارة المستعمرات التي ردّ وزيرها المستر اميري بأن إحياء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فكرة راتب الدعم ليست مفيدة، واقترح رداً (يطمئن ابن سعود الآن، بأنه إذا ما أخذ بمهمة معالجة الوضع على عاتقه، فسيسر حكومة جلالة الملك البريطاني بأن تتعاون معه، بأن تزوده بكل المعلومات التي يمكن أن تتوفر لديها حول وجود العملاء البولشفيك، أو الأشخاص ذوي الآراء البولشفية المعلنة والمتوجهين إلى الحجاز تحت قناع الحجاج. ونقترح أنه لكي يتخذ هذا العرض أهمية أكبر، يمكن أن يقدم مرفقا باقتراح عقد معاهدة تجارية مع الحجاز .).

لم يؤيد وزير الخارجية مفردة تزويد ابن سعود بأسماء الشيوعيين حتى يقوم بتصفيتهم! لأن الملك السعودي غير مهتم بالأسماء وإنما بالحصول على المال أو عقد معاهدة تجارية، ثم إن هناك خطر تسريب الأسماء الى القنصلية السوفياتية عبر مستشاري ابن سعود .

الإنجليز: لا لتعيين سفير سوفياتي في جدة

تضخم الخطر السوفياتي في الحجاز في أذهان المسؤولين في خارجية لندن، ومارسوا أقصى ما لديهم من وسائل لإنهاء الوجود الروسي في الحجاز، ولكنهم ـ ونظراً لبخلهم ـ لم يحققوا مبتغاهم إلا متأخرين. ووصل التدخل الإنجليزي الى حدّ محاولة منع تعيين سفير سوفياتي جديد خلفاً لحاكيموف. ففي شهر مارس 1928م، وصلت معلومات سرية إلى الخارجية في لندن، تفيد بأن الروس يريدون تعيين (ليون إلكونين) قنصلاً لهم في جدّة، يحلّ محلّ حاكيموف، وعلى الفور أوصلت معلومات عن السفير الجديد الى ابن سعود عبر القنصل بيرد في الخامس من مارس 1928م، مرفقة بطلب الى القنصل بأن يضغط على الحكومة السعودية لتمنع بقوة قبول اعتماده، وأن يحذر ابن سعود من قبول ذلك .

أبلغ بيرد مسؤول الشؤون الخارجية السعودية بالموقف، وحذره بأن الحكومة البريطانية وكذلك المصرية (التي تديرها بريطانيا!) ستنظر بعين التخوف والقلق من تعيين الكونين. ثم قدّم بيرد مذكرة مكتوبة جاء فيها: (لي الشرف بأن أؤكد مضمون الحديث الذي أجريته مع سعادتكم، ومع مساعد وزير الخارجية، حول موضوع ليون إلكونين .لقد كان هذا الشخص عضواً في عصابة شيوعية في القاهرة، وقد أمضى فترة في السجن في مصر، حيث أطلق سراحه عام 1927م. وقد علمنا من مصادر موثوقة بأن الكونين سيعين في المعتمدية السوفياتية في جدّة. كما تلقيت تعليمات من حكومة جلالة الملك (البريطاني (بأن أنقل هذه المعلومات إلى سعادتكم، وأن أبين بأن حكومة جلالة الملك، وحكومة مصر، تنظران إلى هذا التعيين بعين التخوف والقلق .).

أحدثت الرسالة استياء لدى بعض مستشاري ابن سعود، ولكن الملك لم يبد أي شيء من ذلك.. بل بعث بوزير الخارجية ـ العراقي الأصل ـ عبد الله الدملوجي، ليتفاهم مع القنصل حول موضوع رسالته وما أحدثته من استياء، نظرا لأن الإنجليز يريدون أن يفرضوا إرادتهم على شعب الحجاز، فأنكر القنصل أن يكون الهدف هو فرض الإرادة!. وبعد اللقاء كتب الدملوجي رسالة ردّ إلى القنصل، بعد ان تفاهم معه على صيغتها !

يشرح القنصل بيرد ذلك في رسالة كتبها لرؤسائه في 1928/6/2، حيث جاء: (حضر الدكتور الدملوجي لمقابلتي في 1928 /5/21، وأخبرني بأن مذكرتي قد تداولها مستشارو الملك بحضوره، وأنها أثارت قدراً لا بأس به من الاستياء. عبّرت عن دهشة كبيرة، لأنني لم أستطع أن أدرك ما هو وجه الاستياء في هذه الحالة. رد الدملوجي بالقول: إن الجملة الأخيرة يمكن فهمها على أنها أوامر إلى حكومة الحجاز بأن ترفض استقبال الكونين. ثم قرأ علي بيرد صيغة الرد المقترحة، والتي تؤكد حق الحكومة الحجازية، بأن تسمح لالكونين بالنزول، وأن تطرده فقط إذا كانت تصرفاته تبرر مثل ذلك الإجراء. قلت له إن إصدار الأوامر إلى حكومة الحجاز، أمر غير وارد. كل ما في الأمر أن الكونين شخص غير مرغوب فيه، ومن ثم فإنه من الواجبات البديهية على حكومة صديقة أن تحذر ابن سعود من الأخطار المحتملة نتيجة وجوده في الحجاز؛ وأن جملة: إن حكومة جلالة الملك تنظر بتخوف، إنما تستعمل في ظروف مشابهة في مذكرة توجه إلى أية قوة عظمى، وإنني عاجز عن فهم كيفية إمكان تحذير ودّي من بريطانيا أن يفسر كما يدّعي أنها قد فسر به، كمحاولة لفرض اتخاذ إجراء محدد أو معين. رد الدملوجي قائلا: إن الحجاز أمة في ريعان الشباب، ذات هضم ضعيف، وأن المذكرة التي لا شك أن فرنسا أو إيطاليا تستطيع هضمها بسهولة، هي أقسى من أن تهضمه معدة الحجازيين. رجوت الدكتور الدملوجي إلا يكون بهذه الدرجة المفرطة من الحساسية). إقتنع الدملوجي بحجج بيرد ووعد بمناقشة موضوع الكونين مرة أخرى مع مستشاري الملك قبل أن يبعث برده .

أما الردّ السعودي فوصفه بيرد بأن لا يعني إلا القليل، وربما لا يعني شيئاً .فمذكرة الردّ السعودية وصفت صياغتها بأنها (شاذّة وغير متّزنة) فقط لأنها لم تستجب للضغط البريطاني. ومع هذا قال بيرد بتحدٍّ: (إنني واثق تمام الثقة بأن حكومة الحجاز سترفض السماح لهذا العتي غير المرغوب فيه، أو لأي سيء سمعة آخر، أن يشغل منصبا في الحجاز). نصّ الرد السعودي كان مؤرخاً في 1928/5/25، وجاء فيه: (حول موضوع الروسي المدعو ليون إلكونين، لي الشرف بأن أبلغ سعادتكم بأنني قرأت مذكرتكم المذكورة أعلاه، وإنني أشكر سعادتكم لتقديم مثل هذه المعلومات. إلا أن حكومتي لا ترى من المناسب في الوقت الحالي، أن تتخذ أي إجراء ضد الرجل المذكور حتى يتوفر البرهان ـ حين يأتي إلى جدة ـ على أنه يستخدم موقعه الرسمي لأغراض غير قانونية .).

وكان القنصل بيرد، وحين علم بقرب وصول سفينتين سوفياتيتين الى جدة، رأى من المناسب أن يذكر الدملوجي بتعهده بطرد ومنع أي سفينة روسية أو أفراد غير مرغوب فيهم من القدوم إلى جدّة. ولكن تبين أن إلكونين لم يكن على ظهر أي من السفينتين اللتين حملتا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حجاجاً وأفرغت أكياساً من الدقيق والسكر، في وقت استعد فيه حاكيموف لمغادرة جدّة. المذهل في كلّ هذا، أن معلومات الإنجليز تبيّن خطؤها، وأن الشخص المعيّن مكان حاكيموف هو ناصر توراكولوف الذي لم تتوفر معلومات عنه لدى الإنجليز .

إن الحساسية السعودية كما اكتشفها بيرد، لم تكن إلاّ لدى بعض مستشاري الملك العرب الذين كانوا أكثر قومية من الملك السعودي نفسه، كفؤاد حمزة. ورأى بيرد أن بعضاً من مستشاري الملك دائبو البحث عن مبرر للهجوم على بريطانيا بحجة استقلال الحجاز، وعلى حرية التصرف بشأنه. ثقة الإنجليز كانت مطلقة في صداقة وولاء ابن سعود لهم، ورغم علمهم التام بأن المستشارين الذين يحوطونه، حتى ولو كانوا يرغبون وبشكل مطلق في إقامة علاقات مع الروس، فإن هؤلاء لن يؤثروا على قراراته. كان الإنجليز يتابعون بدقة الصراع بين مستشاري الملك، وتأثير ذلك على الوجود السوفياتي في الحجاز، مع أن كل المستشارين يؤمنون بشكل مطلق بالعلاقات مع بريطانيا وتوثيق الصلة بها؛ ولكن كان هناك بعض الشك في يوسف ياسين وفؤاد حمزة في أنهما يدفعان الملك لتوثيق العلاقات مع روسيا. ولذا تجد أن استقالة الدملوجي الموالي الأكبر للإنجليز ترتبط مباشرة بالعلاقة مع الروس، بسبب صعود نجم من سُمّوا بالعصبة السورية .

أما المصري حافظ وهبة، الذي بدأ نجمه يأفل لصالح السوريين فقد فتح قلبه لأحد موظفي الممثلية البريطانية في 1928/9/10، وعبر عن رأيه بأن النفوذ السوري بالغ الضرر والإساءة لابن سعود والحجاز، وهو يعتقد أن المستشارين السوريين يمارسان الضغط على ابن سعود كي يعقد معاهدات مع روسيا السوفياتية، ومع تركيا.. وهي معاهدات يعتبرها الشيخ حافظ عديمة الجدوى والفائدة بالنسبة للحجاز، ومقدر لها أن تعزل وتبعد الحكومة البريطانية .

تضخيم الخطر الشيوعي في الحجاز

هل هناك خطر سوفياتي يستحق كل هذه الضجة البريطانية؟ !

يبدو أن القنصل البريطاني في جدة كان على دراية تامة بأبعاد الوجود السوفياتي في الحجاز ونشاطاته، ولذا كانت تقاريره أقرب إلى الحقائق من ملاحظات المسؤولين القابعين في لندن، والتي تتسم بالمبالغات الفجة، والتي تصور الوجود السوفياتي وكأنه بعبع كبير ومخيف. الإستثناء من كل هذا، هو لـ ج. رندل، أحد العاملين في الخارجية، القسم السعودي. ولأن القنصل البريطاني في جدة كان أكثر قربا من الأحداث في الجزيرة العربية، لذا ترى أن الكثير من تقاريره تحاول أن تهدئ من مخاوف المسؤولين في خارجية لندن تجاه الخطر الروسي، وفي أحيان كثيرة يرد فيها على المبالغات في التقارير التي تصل إلى هناك .

حين وقعت ثورة الإخوان عام 1928، حاول كبير المعتمدين البريطانيين في عمّان الربط بينها وبين الروس، وكأن الثورة الإخوانية ثورة شيوعية! وقد سأل هذا بيرد في جدة: هل تستطيع تأكيد الخبر القائل بأن المعتمد السوفياتي في جدة على اتصال مستمر بابن سعود عن طريق المراسلة، وأن نشاطاته الحالية ليست معدومة الصلة بالوضع بين العراق ونجد، والذي تأثر بسبب هجوم (الإخوان) الذين يشكلون العمود الفقري لجيش ابن سعود على الحدود العراقية .

وفهم بيرد جهل صاحبه فرد في 9 أبريل 1928: (إن كل المعلومات التي بحوزتي تميل إلى إثبات أن المعتمد السوفياتي بعيد كل البعد عن ودّ ابن سعود الذي ـ من جملة الأسباب العديدة ـ عبّر عن استيائه لكون عامل مناجم سابق هو الذي يقوم بدور المعتمد الدبلوماسي)! وأضاف: (لا أعتقد أن للبولشفيك أي تأثير على ابن سعود؛ فأهدافهم المعلنة وغير المعلنة تتعارض تعارضا مباشرا مع مصالح الملك والبلاد. أما أن يكون حاكيموف على علاقة بابن سعود عن طريق المراسلة.. فأمر محتمل، والمعتمدون الأجانب يخاطبون الملك مباشرة عن طريق المراسلة حول القضايا الهامة، وليس وزارة الخارجية، التي تنحصر مهامها ـ خاصة حين يكون الملك في الحجاز ـ حصراً شبه كامل في قضايا روتينية. فإن يكون المعتمد السوفياتي على علاقة مراسلة بابن سعود.. فذلك لا يقدم دليلا على أن موضوع المراسلة غير مناسب، وأنا لا أعتقد شخصيا بأن الأحداث التي وقعت مؤخراً في نجد ـ ثورة الإخوان ـ لها أي علاقة من قريب أو بعيد بالدعاية ونفوذ السوفياتيين). أيد ج. رندل بيرد ليثبت الرأي القائل (بأن الدعاية السوفياتية في الحجاز ليست مخيفة بالقدر الذي صورت به حتى الآن .(

وقبل هذا في مايو 1928، التقى القنصل بيرد بكابتن سفينة بريطاني كان هو الآخر مشبع بالمخاوف من النفوذ السوفياتي وأعدّ تقريراً بذلك! فبيّن بيرد ما وصفه بالمبالغات الكبيرة خاصة وأن (كل عناصر المعتمدية السوفياتية في جدة لا يتجاوزون الستة، بمن فيهم الطبيب. أقررت بأن مخاوفه من احتمال تلوث الحجاج بالدعاية السوفياتية أمر طبيعي، ولو أنه وللعديد من الأسباب أقل خطورة مما يبدو .(

مدير مخابرات حكومة الهند، الدكتور (بيتري) بعث في السادس من ديسمبر 1928م، تقريرا سريا عن النشاطات المبالغ فيها والمزعومة في الحجاز من قبل السوفيات، بعثه إلى القنصل بيرد في جدة، يطلب منه إبداء رأيه حوله. فكتب إليه القنصل بيرد رسالة بتاريخ 24 فبراير 1929م ردا لا يختلف عن آرائه التي أبداها سابقا، وقال إنه (لم يحصل أي سبب يدفعني إلى تعديل آرائي). وأضاف: (ستدركون أنني لا أرى أن السوفيات سيحصلون على موطئ قدم في هذه البلاد يمكن أن يضر بالمصالح البريطانية، فالحكومة الحجازية لا مصلحة لها.. كما لا مصلحة لنا تماما، في رؤية مكة تتحول إلى مركز للتآمر البولشفي .(

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم يحدد بيرد مصدر الخطر، في المطوفين الذين وصفهم بـ (الأوغاد) و(الأنذال (و(عديمي الضمير) و(المجردين من كل قيمة أخلاقية)؟! يبرر بيرد أوصافه غير المتزنة هذه (لأنهم يعملون تحت ستار الدين لاستغلال موسم الحج والحجاج لإرضاء أطماعهم وبأقصى طاقتهم). فإذا كان ذلك صحيحا، فهل استغلالهم للحجاج يضر مصالح الإنجليز؟ !

الصحيح أن الحجاج الهنود حملوا قضيتهم الى الحجاج الآخرين للتعريف بها وتبيان مساوئ الإستعمار البريطاني. هذا هو كما يبدو سبب تحامل بيرد ضدهم. يقول: (إن الكثير من الحديث المعادي لبريطانيا وللغرب، يجري تداوله من قبل الحجاج الهنود، الذين يحملون آراء غير مرغوبة). لكنه ينبه الى المبالغات التي ترسم صورة صارخة الألوان تكفي لإعطاء انطباع خاطئ. وأوضح بيرد أن بعض الأسماء الهنود التي ذكرتها الإستخبارات لم تكن تتآمر مع ابن سعود ضد بريطانيا، وإنما هم رسل الملك يحاولون جاهدين أن يتقربوا من الأشخاص الذين يدافعون عن قضية ابن سعود في الهند قبل أي شيء آخر.. وهم بذلك يجتذبون أعدادا إضافية من الحجاج، وبالتالي عائدات أكبر إلى الحجاز .وحقق بيرد في الإسماء التي وردت من الهند فاكتشف أن ليس هناك ما يدل على قيام أي منهم بأية نشاطات يمكن الاعتراض عليها خلال موسم الحج الحالي .

إذن أين هو الخطر؟ يتابع بيرد: (أن خطر الوضع لا يكمن في الآراء التخريبية التي قد تنتشر بين جماهير الحجاج في الحجاز بواسطة المعتمدين السوفيات.. ولا من أبناء بلادهم، ولا من الأحاديث المعادية لبريطانيا والتي يتداولها بعض السياسيين غير المرغوب فيهم، وإنما من النشاطات التي يمكن أن يمارسها المطوفون. فمرشدو الحجاج هؤلاء هم في معظمهم من الأوغاد والأنذال، عديمي الضمير والمجردين من كل قيمة أخلاقية، والذين يعملون تحت ستار الدين لاستغلال موسم الحج والحجاج لإرضاء أطماعهم وبأقصى طاقتهم. وقد أدت الأنظمة الدقيقة والشديدة، المعمول بها في الحجاز، إلى إنضاب مواردهم تقريبا من العائدات والأرباح.. وقد يحاولون ـ نتيجة ذلك ـ البحث عن وسيلة لزيادة دخلهم من المصادر السوفياتية !(

ويوصي بيرد: (حين يزور ـ المطوفون ـ الهند بعد موسم الحج ليدوروا ويجولوا بحثا عن حجاج الموسم القادم، فإنه يتوجب أن تراقب تحركاتهم بحرص وعناية كبيرة جداً. من الواضح جدا أنه يستحيل ـ نظراً للطبيعة الدينية للحج ـ منع غير المرغوب فيهم من الهنود من زيارة الحجاز، كما لا يمكن ـ إلا في حالات غير اعتيادية ـ منع المطوفين من زيارة الهند.. ويستحيل أيضا على هذه المعتمدية تتبّع عن قرب تحركات جميع المشبوهين. إن نتائج أية دعاية ضد بريطانيا في الحجاز، أو أية نشاطات غير مرغوب فيها قد يقوم بها المطوفون، يمكن الحكم عليها أفضل حكم في الهند نفسها، حيث يمكن مراقبة غير المرغوب فيهم من العائدين، وكذلك الجوّالين الباحثين عن حجاج مراقبة دقيقة محكمة. فإذا ثبت نتيجة هذا الأشراف.. وهذه المراقبة، أن الحجاز يستخدم فعلا كمركز للدعاية المضادة لبريطانيا، فإنه يمكن عندها الاتصال رسميا بحكومة الحجاز بهدف اتخاذ إجراءات قوية، والتي تكون الحكومة السعودية ملزمة باتخاذها، بموجب المادة الثانية من معاهدة جدّة .(

أيّاً يكن موقف المستشارين كما موقف البريطانيين، فإننا كلما حاولنا أن نفهم من أين يكمن الخطر على المصالح البريطانية في الخليج والحجاز من قبل الروس، فإننا نعجز عن تحديده، بل إن المسؤولين البريطانيين الكبار عاجزون عن تحديده أيضا.. ربما لسبب واحد، هو أنه ليس هناك خطر أساسا، وبالتالي فالحديث عنه مجرد ثرثرة وخيال وتخوف زائد عن حدّه .

جدل حول الثمن: صفقة السلاح المستعمل

في وثيقة بريطانية مؤرخة في 1929/5/23 وحملت عنوان

)تقديم المساعدات لابن سعود مقابل سياسته المعادية للبولشفيك)، كتب المستر غلندور جب من وزارة الخارجية مذكرة هامة حول الوجود الروسي في جدة تناول فيها القضية حاضرا ومستقبلا، وتأثيرها على العلاقات مع ابن سعود والروس. جاء فيها) :باستثناء إبلاغنا لابن سعود أننا على استعداد لأن نعقد معه معاهدة تجارية، فإننا لم نتمكن من الاهتداء إلى أيّ رد بالمقابل يكون مغرياً له بحيث نعرضه عليه. لا بدّ أن نتذكر أنه بمجرد أن يدرك أن المعاهدة المقترحة لن تكون إلاّ شيئاً شبيهاً بالمعاهدة البولندية/ الهندية، فإنه لن يعتبر حتى هذه المعاهدة شيئا ذا قيمة وذا بال، أما راتب الدعم ـ وهو ما يفضله جلالته بدون شك ـ فإنه غير وارد بالمرة .(وأضاف: (أعتقد أن علينا أن ننظر بجدية واهتمام فيما إذا كان ابن سعود يلعب علينا، وفي هذه الحالة نستطيع الرد على لعبته بالاستمرار في الموقف الحالي الذي نتبعه، وبالتالي نقترح معاهدة لا تضر أبدا في نهاية المطاف، وهناك فرصة حقيقية في احتمال :

أ ـ سماحه للبولشفيك في أن يبيعوا شحنات سفنهم في جدّة وفي مناطق أخرى .

ب ـ عقده معاهدة تجارية أكيدة معهم على غرار تلك التي عقدها الإمام يحيى إمام اليمن .

جـ ـ إطلاق يد العملاء البولشفيك والمحرضين في الحجاز، حيث يمكن أن يكونوا في وضع يستطيعون فيه تلويث الهند والشرق عن طريق تضليل وإفساد الحجاج القادمين إلى مكة .(

وتابع: (من الصعب أن يكون المرء جازماً في أي هذه الاحتمالات.. دونما دليل يستند إليه. صحيح أن سياسة ابن سعود التي يمارسها مؤخراً ـ وبكُلّيّتها ـ إنما هي مبنية على العلاقات الجيدة معنا؛ وتنفيذا لهذه السياسية، تحاشى الصدام مع أعدائه التقليديين في شرق الأردن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والعراق، وقضى على ثورة خطيرة قام بها رجال قبائله - ثورة الإخوان - واستخدام ملاحين جويين بريطانيين لإعادة تنظيم قوته الجوية، فاستحق - بصورة عامة - استياء القوميين المسلمين الشديد في الهند وغيرها. ونحن من جهتنا، قدمنا له ما استطعنا من المساعدات والدعم المعنوي، واعترفنا بلقبه الجديد كملك، وكذلك اعترفنا بحقه في ضمّ عسير إلى دولته. ونحن الآن نستعد لمواجهة رعاياه المتمردين في الكويت من العجمان. كلانا يستفيد - إذن - من العلاقات الودية، وإن أي إساءة لهذه العلاقات.. ستكون أيضا مصدر ضرر متبادل. وإضافة إلى ذلك.. فإن أية مبادرة للتقرب من البولشفيك قد يقوم بها ابن سعود، ستعني - بكل بساطة - إنقلاباً في السياسة التي ظل يتبعها حتى الآن .).

ومضى جب في تقييمه للإحتمالات فقال: (نحن نعلم: أنه سيكون في مصلحة ابن سعود الشخصية والآنية - ولكن ليس في مصلحة غالبية تجار جدة - أن يسمح للبولشفيك بإنزال بضائعهم في الحجاز. وأن السوفيات يقومون في هذه اللحظة بجهود حثيثة لعقد معاهدة تجارية معه، يبدو أنهم يعلقون أهمية كبيرة عليها. ومن الواضح أيضا أن أية معاهدة مع الاتحاد السوفياتي - بغض النظر عن مزاياها وفوائدها التجارية - سيكون من آثارها دعم وزيادة هيبة ابن سعود بين كل العناصر المعادية لبريطانيا في الشرق الأوسط، ويمكن الافتراض حينها بأن شبه الجزيرة العربية بدأت تصبح أكثر استقلالا، وأن النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط قد تلاشى. من الممكن أن يجد ابن سعود - بعد عقد مثل هذه المعاهدة إذا تمت - صعوبة في ممارسة تلك المراقبة الدقيقة والحازمة للمعتمدين البولشفيك، وهي المراقبة التي ما زال يمارسها حتى الآن .).

ورأى جب أنه من غير الحكمة إسقاط مثل هذه الإحتمالات، وأوصى بالإحتياط ضدها إن أمكن (بتقديم شيء ما لابن سعود، يكون أكثر إغراء من مجرد اتفاقية تافهة، ومن استمرار نياتنا الحسنة تجاهه). وأضاف بأن الملك في أمس الحاجة الى الأسلحة والذخائر) كي يستخدمها ضد قبائل العجمان المتمردة) وأوصى بأن لا تستخدم مسألة الأسلحة مقابل مكافحة السوفيات فذلك يخلق الإنطباع (بأننا نتخلى عن ابن سعود وقت الشدّة. بل علينا أن نبذل كل جهد مستطاع لإيصال الأسلحة إلى ميناء العقير بأقل تأخير ممكن. لكن لا بد أن نتذكر بأن حكومة الهند تطالب ابن سعود حالياً بدفع ما لا يقل عن 34 ألف جنيه ثمناً لألفي بندقية مستعملة، ولمليون طلقة ذخيرة. إن هذا الثمن باهظ، يُطالب به شخص مقابل مواد مستعملة، ربما لا يكون بالإمكان التخلص منها بأي طريقة أخرى، فكيف بشخص نحن نواقون لمساعدته .).

واقترح جب اللعب على هذا الدين، بالتنازل عنه وهناك احتمال قوي بأن يقبل ابن سعود ذلك، وحتى لو لم يقبل أن يكون ذلك ثمناً لبيع الروس، فإن حكومة الهند يجب أن تتخلى عن دينها أو جزء منه، على أن يدفع ابن سعود نفقات المواصلات فقط. أو أن تسلم حكومة الهند ألف بندقية من مخازن العتاد في فلسطين مقابل ما أعطته ابن سعود. وإذا ما تمت الموافقة على هذا الإقتراح، رأى جب أن يبلغ ابن سعود شفوياً وفي أذنه برسالة تفيد بأن (الحكومة البريطانية يسرّها أن تكون مصدر عون ومساعدة لجلالته، من أجل صداقتهما الطويلة، وأنها قد أعطت إشارة البرهان عن حسن نواياها، بالتنازل عن مبلغ كبير من المال.. ولكن، وكما يدرك جلالته، فإن الحكومة البريطانية، لا تستطيع أن تضمن تدفق مثل هذه المساعدات في المستقبل القريب إذا ما دخل في علاقة وطيدة مع أية دولة أخرى، أو إذا ما قدم التسهيلات التجارية لأية دولة كبرى أخرى.. بما يسبب ذلك من ضرر على التجارة البريطانية، أو الهندية/ البريطانية في الحجاز .).

هذه المذكرة.. بل هذا التقييم الشامل الذي قدمه غلندور جب جهد ذكي حصيف، ورغم الحجج الجيدة التي قدمتها، رفضت لأسباب بريطانية بحتة. ج. رندل في مكتب وزير الخارجية البريطاني يؤيد ما قاله جب، ويقول: (إذا استطعنا تقديم بادرة سخية في هذا الوقت، فإن ذلك سيكون تصرفا خير النتائج، وسيمثل قطعا لشوط لا بأس به، على طريق إعطاء ابن سعود الرد المقابل لسياسته المعادية للروس). ورغم اعتقاده بأن سعر السلاح المصدر لابن سعود غال، إلا أنه خشي من مساءلة في البرلمان البريطاني إن تم التنازل عن الدين، وكأنه إعادة لراتب الدعم القديم الذي قطع عام 1924. كما خشي رندل من إثارة الرأي العام الهندوسي أو الإسلامي المعادي بقوة للوهابية. وتابع (إنني لا أستطيع أن أتصور كيف تستطيع الحكومة أن تتعهد بتقديم هذا المبلغ عشية الانتخابات، وأن تتوقع موافقة البرلمان). ورغم موافقته بشكل كامل لمذكرة جب، فإنه وصل الى النتيجة المرّة: (لا أستطيع إلا الاعتراف ولو مترددا، بأن هذه الاقتراح الذي يطرحه المستر جب هو اقتراح غير عملي). وأيد وزير الخارجية الأمر، بأن الإقتراح غير عملي رغم حصافة المقترح، ووعد بأن يسأل حكومة الهند ما إذا كان يمكنها أن تقدم امتيازاً من نوع ما للملك السعودي.

العلاقات السعودية الروسية وإرث الحجاز المُحتلّ

(2-2)

نشأت العلاقات السوفياتية - السعودية صدفة! فقد احتل السعوديون الحجاز ووجدوا الروس هناك يبادرون فيهنؤون! وبعد ثلاثة عشر عاماً، وبعد فشل الملك السعودي في) بيع) الوجود الروسي في الحجاز مقابل مساعدات بريطانية، تمّ قطع العلاقات بين البلدين عام 1938 لتعود العلاقات من جديد بعد نصف قرن تقريباً أواخر الثمانينيات وبعد تفكك الإتحاد السوفياتي نفسه. ومنذئذ وحتى بداية سبتمبر 2003 لم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تكن العلاقات بين جدة وموسكو متميزة بل كانت أقلّ من عاديّة، فهل هذا المختصر المبسط للعلاقات يمكن أن يتحوّل الى تحالف استراتيجي بين البلدين؟ وهل يفيد في حماية النظام السعودي الذي بدأ يترنّح بسبب المشاكل البنيوية ذات الإنعكاسات شديدة الخطر، والتهديدات الغربية الخارجية؟

جدل حول الثمن: الإعتراف المصري باحتلال الحجاز

تفتقت عقلية المندوب السامي في القاهرة (اللورد لويد).. فاقترح على حكومته إجبار الملك فؤاد على الاعتراف بابن سعود ملكا على الحجاز ونجد وملحقاتهما. ففي رسالة بعثها لوزير الخارجية في 1929/6/5م، أشار الى مهمة اعتبرها مشبوهة قام بها الأمير شكيب أرسلان في الحجاز، والى الهدايا التي يقول عنها لويد (مصدرها - بلا شك - موسكو) والتي يحملها شكيب لإبن سعود! إذا كانت قائمة المشبوهين لدى الإنجليز والتي تحوي أسماء العناصر العميلة للروس، تحوي اسم شكيب أرسلان، فمن الذي يبقى ولم يرد اسمه في هذه القائمة؟ !

في تلك الرسالة قال لويد: (إذا ما أظهرنا ردا سلبيا ونحن نبحث مبادرات التقرب التي يقوم بها ابن سعود، فلن يكون من الصعب تصور ظروف الإحراج الداخلي التي قد تدفع ابن سعود - بعد أن يكون قد يئس من أي مخرج آخر - لأن يستسلم للإغراء البولشفي، ويقبل الذهب الروسي الذي سيوفر له الانفراج، ولو أنه فعلا انفراج مؤقت، وعلى حساب نكبة ستحل عليه في نهاية الأمر، وتنزل طامتها به شخصيا). وأضاف معترفاً: (مما لا شك فيه أن هناك في العالم العربي والفارسي، عوامل حكومية ودينية.. وتقاليد وممارسات وعادات، تقف حائلا قويا ضد انتشار البولشفية.. فأنظمة الحكم الثيوقراطية في نجد والحجاز واليمن - مثلا - ستكون بطبيعة الحال معادية للأفكار البولشفية.. وبالطبع، فإن الخطر يكمن في أن أنظمة الحكم هذه، حين تحاول استغلال البولشفيك خدمة للأهداف القومية المحلية، دون الاعتراف بالجزء الشيوعي من البرنامج، فإنها قد تجد رعاياها في نهاية المطاف - وخاصة العناصر القبلية - قد أفْسدوا وسمّمت عقولهم، وأفلتوا من السيطرة.. وغني عن القول، أن مثل هذه الفوضى والانفلات، ستوجه ضد المصالح البريطانية بالدرجة الأولى. وإذا نجحت هذه الحكومات في استخدام البولشفية دون التضحية بالنظام الداخلي للدولة، فمن المحتم أن تزداد حدة ميولها القومية والمعادية لبريطانيا نتيجة هذا الربط بين البولشفيك والميول القومية .).

وأخيراً يخلص اللورد لويد الى التالي: (يبدو لي أن هذه المخاطر هي من الجدية والخطورة للحد الذي تستوجب الاهتمام الحقيقي والفوري.. وهكذا، فإذا جاء أقوى حكام الجزيرة العربية يعرض التعاون معنا ضد الخطر البولشفي، فإنني أعتقد أن علينا أن نتردد قبل أن نرفض طلبه، من الواضح أن لا بد من تقديم بعض التضحيات من جانبنا، إذا كنا نريد أن نكسب تعاون حليف بهذه القوة.. أنا أعلم أن هناك اعتراضات متعددة على فكرة تجديد دفع راتب الدعم لابن سعود، ولست شخصيا على استعداد أن أعبر عن رأي محدد حول ما إذا كانت هذه الاعتراضات تزيد من أهمية على مزايا تأمين تعاونه معنا أم لا، إلا أنني كلي ثقة بأن القضية برمتها ستدرس دراسة مستفيضة، بهدف اكتشاف الطرق والوسائل لضمه إلينا ضد التغلغل البولشفي، وليس ضم ابن سعود فحسب، وإنما ضم الإمام يحيى إلينا أيضا .).

بعد عشرة أيام، بعث لويد رسالة أخرى الى وزير الخارجية كأحد الحلول: (موقف ابن سعود الحالي من الحكومة البريطانية ومن العراق، هو موقف مرض بوجه الإجمال، وواضح أنه تواق للمحافظة على علاقات جيدة معنا، إلا أنه قد شكى مرات عديدة من أنه لم يتلق منا مؤخرا إلا القليل من تعبيرات الود والصداقة مقابل صداقته الثابتة والمستمرة، في وقت تزداد فيه الصعوبات التي يواجهها. إن من غير المستحسن أن يبقى تحت هذا الانطباع، إذ قد يغريه هذا بالتحول إلى البولشفيك طلبا للمساعدة، وهم الذين يظهرون نشاطا كبيرا في الجزيرة العربية. إن أي شيء نفعله في الوقت الراهن لمساعدة ابن سعود سيكون مفيدا من الناحية السياسية، وأعتقد أن المندوب السامي في العراق - جلبرت كلايتون - يؤيد رأيي هذا.. فإذا أدرك ابن سعود أننا نستطيع أن نكون مصدر نفع له بقدر ما نحن مصدر رعب وخوف، فإنه ربما يتجه إلى إعطاء أهمية أكبر لأمر المحافظة على صداقة طويلة الأمد معنا. ومما لا شك فيه أن اعتراف مصر به سيمنحه الكثير من الرضى المعنوي، وإذا ما تحقق هذا الاعتراف من خلال وساطتنا الحميدة، فإن آثاره ستكون مصدر فائدة كبيرة فيما يتعلق بتأثيرنا عليه .).

تجدر الإشارة الى أن مصر قطعت علاقاتها مع آل سعود، بعد حادثة المحمل في العشرينيات، وعملت على إخراج السعوديين من الحجاز، وقيل أن الملك فؤاد - وبتحريض من شخصيات حجازية - قام بدعم ثورة حامد بن رفادة شيخ قبيلة بلي في الثلاثينيات، تلك الثورة التي انتهت بدموية، وقطع رأس الثائر وتلاعب به الأطفال كما يقول الزركلي في تاريخه عن السعودية .

بيد أن موقف لويد ذي النزعة الإستعمارية لم يقبل، ورأى مسؤولون في الخارجية أنه يبالغ في تصوير الخطر، وأنه لا يحق له التدخل في شؤون الجزيرة العربية، لأنها ليست ضمن نطاق صلاحياته. أما جب، فقال أن اقتراح إجبار الملك فؤاد على الإعتراف بابن سعود يجري مناقشته بشكل مستقل، وأضاف: (لست أجد وسيلة أخرى غير راتب الدعم يمكننا بواسطتها مساعدة ابن سعود). في حين اقترح رندل معاونة ابن سعود في تكوين قوة جوية حجازية مقابل ضرب السوفيات، وهو اقتراح قدم لوزارة القوى الجوية البريطانية .

رأي القنصلية في جدة: في 10 يوليو 1929م، قدم القنصل البريطاني الجديد (بوند (رأيه حول الثمن الواجب دفعه لابن سعود فقال: (المعتمدية السوفياتية لا تتصرف بصورة تعطي الملك المبرر للشعور بالخوف والقلق. أنا أعتقد رغم كل محاولات من سبقني ومحاولاتي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنا لإظهار مدى خطورة الوضع في ذهن الملك ووزرائه، أي الوضع الكامن في مجرد وجود المعتمدية السوفياتية بينهم، فإنهم يدركون مداها إلى حد كبير ولكن ليس إدراكا كاملا. إنهم لا يشكون لحظة في قدرتهم على السيطرة الكاملة على الوضع. من وجهة نظر الملك في الوقت الحاضر، أتصور أنه لا يرى في البولشفية إلا مجرد وسيلة للضغط علينا، تأمينا لمطلبه. ما لم نكن على استعداد للذهاب شوطا بعيدا في مكافأة الملك مكافأة معقولة ومجزية، فنعترف ونقر بذلك بأننا نعلق أهمية كبيرة على هذا الموضوع، فإن الأفضل ترك الأمور على حالها في المرحلة الراهنة، على أن نعود إلى دراسة الموقف حين تقع الواقعة بالمجموعة السورية، هذا إذا وقعت .(

هنا.. على آل سعود ـ اليوم وغدا أيضا ـ أن لا يزعموا بأنهم يحاربون الشيوعية من منطلق عقائدي.. فالمحاربة جاءت خدمة لاستراتيجيات الغرب، وكل ما عرض من وثائق يفيد، بشكل صارخ أن القضية قضية بيع مقابل ثمن، ولا ترتبط بأي شكل من الإشكال من الزاوية العقائدية .

تطور التمثيل الدبلوماسي في الحجاز

بين عامي 1930 و1933م، تتطور العلاقات السعودية السوفياتية التجارية، ويخضع الإنجليز للأمر الواقع بعد أن رفضوا دفع الثمن المطلوب لابن سعود. من علامات هذا التطور رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي الروسي من معتمدية إلى مرتبة مفوضية، على غرار المفوضية البريطانية.. وكذلك تقديم هدايا روسية لابن سعود هي عبارة عن أجهزة هاتف، إضافة إلى قدوم طيارين روس ليقودوا الطائرات السعودية، وقيام أطباء السفارة بمعالجة حريم الملك !

ففي يناير 1930م تم رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي للقنصلية الفرنسية والمعتمدية السوفياتية إلى مرتبة مفوضية. كما أن الباخرة السوفياتية (فوستوك) وصلت إلى جدة في 6/1/1930 وعليها شحنة من الأدوية لاستعمال المفوضية، كما أحضرت بروفيسوراً روسياً قيل أنه اختصاصي بالأمراض الشرقية، وأنه جاء لأغراض الأبحاث والدراسة. وترافق البروفيسور زوجته، وهي مساعدة طبيب، كما يرافقه مترجم مع زوجته. وهؤلاء جميعاً مرتبطون بالمفوضية السوفياتية، والتي تضم بين عناصرها ـ ومنذ مدة طويلة ـ طبيبة سيدة .

وقد تمّ تعيين نظير (أشير الى أنه ناصر في وثائق بريطانية سابقة) توراكولوف وزيراً مفوضاً، وقد كان معتمداً وقنصلاً عام، وقد قدم أوراق اعتماده لوزير الخارجية فيصل، بسبب غياب الملك في 1930/1/26. وأصبح نظير فيما بعد عميداً للسلك الدبلوماسي، وهو مسلم مستدير الرأس من تركستان، وله ملامح تترية متميزة، كان عمره حين تعيينه نحو 35 عاماً، قال الإنجليز أنه كان ذكيا وله مقدرة كبيرة في مجال اللغات، حيث استطاع اكتساب معلومات جيدة وعملية في اللغة العربية، كما حسن لغته الفرنسية إلى حد كبير، وبدأ يتعلم الإنجليزية منذ وصوله إلى جدة، وهو يشعر بالراحة في الحديث باللغة التركية. لم يكن نظير بيك يحبذ الإنخراط مع الممثلين الغربيين إلا قليلاً، وهو يتميز بروح مرحة وله اهتمامات تجارية واقتصادية أكثر من اهتماماته السياسية، ويبدو ان مهمته كانت تتمحور حول تسويق البضائع الروسية، وهو الذي كان وراء صفقة النفط السوفياتي الى الحجاز عام 1931، ووراء رفع الحظر عن البضائع الروسية. كان نظير يتظاهر بأنه مسلم ملتزم، ولكن في عام 1932 ـ وحسب زميله البريطاني ـ خرج من قوقعته، ولم يعد يتظاهر في المجتمع الدبلوماسي بأنه مسلم ملتزم فهو يشرب الويسكي في المناسبات حتى في شهر رمضان! ومع هذا يولي نظير بيك اهتماماً بالشخصيات المحلية، ويرتدي غطاء الرأس العربي. ومن الأمور المدهشه أنه نادرا ما كان يغادر جده، كما أن زوجته الشقراء غير المسلمة قبلت الإقامة الدائمة معه ونشطت في مجال توزيع الأدوية في جدة، وكانت ترحل أحياناً الى الطائف وتساعد في تطبيب ومعالجة الحريم الملكي .

في عام 1935، كانت قد هدأت سورة الإنجليز من الروس، حتى أن وزيرهم المفوض في جدة، رأى أن الدليل معدوم حول وجود أية سياسة محددة من قبل السوفيات للعبث والتلاعب بالحجاج، وسفنهم المنهمكة في تجارة البحر الأحمر ترسو في ميناء جدة مرة في الشهر تقريبا، وليس هناك من جالية روسية، لكن كادر المفوضية يضم طبيبا يتمتع بشيء من التمييز باعتباره اختصاصيا بالبكتريا (علم الجراثيم)، وهي حقيقة تعطيه قدرا لا بأس به من الأهمية في عالم جدّة الصغير .

الروس يصدرون نفطهم للحجاز

كان الوضع الإقتصادي يشهد أزمة مالية متعاظمة، وهي ذات الفترة التي مرّ بها العالم كساداً لم يشهد له مثيلاً، ونقصد بذلك فترة الثلاثينيات الميلادية من القرن العشرين. كان الملك بعد أن فرغ من حج عام 1931 يبحث في كل اتجاه قبل أن يغادر جدة الى الرياض عن مصدر للمال طارقاً أبواب الجهات الأجنبية التي جاءته حينئذ بعقد البحث عن شركة تنقيب للنفط أميركية. وقد استطاع وزير السوفيات المفوض عقد صفقة بيع 50 ألف صفيحة من البنزين بشروط سهلة، أثارت الكثير من الشائعات التي تفيد بأن الحكومة السعودية اتفقت مع الروس على أسس أوسع وأكثر شمولا .

في هذه الأثناء زار المعتمد البريطاني في الكويت الكولونيل ديكسون الرياض، وهناك التقى بحافظ وهبة وأبلغه بأن الروس يحاولون الحصول على امتياز تصفية وتكرير المنتجات النفطية في الحجاز ونجد، واقترح وهبة على ديكسون أن يفاتح السير ولسون، المقيم في بغداد، بأن ينقل إلى عائلة القصيبي المقربة من الملك السعودي امتياز تكرير منتجات نفط الـ A. P. O. C في نجد، لأن الملك لا يحب الشخص الموكلة له حالياً .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي يوليو من نفس العام 1331، غادر نائب القنصل الروسي (تويميتوف) جدة بعد أن أمضى سنوات فيها، وكذلك فعل طبيب المفوضية وزوجته، وهذا ما جعل أفراد المفوضية يتضاءلون بشكل ملفت .

توضحت ملامح صفقة النفط الروسي في شهر سبتمبر 1931، حيث أفادت المفوضية البريطانية بأن نائب الوزير المفوض في جدة هوب جل التقى الأمير فيصل، وسأله عن الصفقة، فامتقع وجهه، وعاد الى التاريخ وكيف أن محاولات الملك السعودي قد تم رفضها .فقال جل كاذباً: (حاولنا عقد اتفاقية تجارية ذات أفضلية). فرد فيصل بأن الإنجليز أخطأوا وتركوا الملك تحت الضغط الروسي (وحيداً بلا معين إلى أن أصبحت الظروف أقوى من أن يستطيع الوقوف أمامها)! ويضيف جل في رسالة له بتاريخ 9 سبتمبر 1931: (هنا ذكرته بأن الموقف الشجاع لم يقفه من أجل سواد عيوننا، بقدر ما كان بسبب النظرات السوداء من أشقائه النجديين، ومن رجال القبائل الحجازية، التي كانوا يطلقونها لمجرد ذكر البولشفية والبضائع السوفياتية. وقد اعتبرني على حق.. ولكن إلى حد ما .(

تحدث فيصل عن حاجة البلاد الى المحروقات، وأن مستشاري الملك ووزراؤه أنجزوا أفضل إنجاز لعمل سيء، وتعاقدوا على شراء ما قيمته ثلاثين ألف جنيه من البنزين، وبشروط جيدة جدا أيضا. فقال جل بأن المسؤولين السعوديين خُدعوا واستدرجوا إلى طريق تنازلات أخرى قادمة. وذكر فيصل بأنه رغم الإنكار المطلق والنفي القاطع لدخول بضائع روسية، فإن علب الكبريت الروسية تباع علنا وفي كل مكان، كما أن الأسمنت الروسي ليس مجهولاً! ردّ فيصل بشكل غريب بأن الحظر قائم، وفي نفس الوقت اعترف بأنه تمّ فرض رسوم وضرائب على البضائع الروسية تعادل أربعة أضعاف الرسوم المفروضة عادة، وهو وضع يسهل فهمه جداً في جدّة. ثم قال بصراحة إن الوضع المالي سيء للغاية، ولكنه لا يعتقد بأنه ميئوس منه. وأضاف بأنه شخصياً لم يقبض راتبه منذ سبعة أشهر !

كانت هناك منافسة من الهر دي هاس، القنصل الألماني في جدة الذي سافر الى موسكو مهدداً بتأمين صفقة نفط رومانية رخيصة، أو يقدموا له بعض العمولة!، ولكن الروس ماطلوه حتى عقدوا الصفقة عبر وزيرهم المفوض فرجع بخفي حنين. وكان السوفيات في حالة من الحماس لتأمين توقيع العقد، قبل أن يتمكن الهر دي هاس من العودة إلى جدة، وإغراء الشيخ عبد الله السليمان بشراء النفط الروماني الأرخص، إلى حد أنهم أوفدوا اثنين من المندوبين التجاريين ذوي الصلاحيات المطلقة إلى جدة وهما: الكومراد جورجييف، الذي يمثل جمعية التجارة الشرقية أتى من الحديدة من الجنوب، وتبعه بعد وقت قصير الكومراد هيرتغ ممثلاً لمؤسسة صادرات النفط السوفياتية، وقد وصل هذا الأخير بأقصى سرعة من أوروبا. بنود العقد الحرفية تنص على أن تشتري الحكومة الحجازية 60 ألف صفيحة من البنزين، سعة الصفيحة ثمانية جالونات، بسعر يعطى بالعملة الإنجليزية القديمة، و 40 ألف صفيحة من الكيروسين وبنفس السعر السابق، مما يجعل القيمة الإجمالية للعقد 30 ألف جنيه، تدفع على أربعة أقساط متساوية، بمعدل قسط كل شهرين، وتدفع حين التسليم الذي يتوقع أن يتم قريبا .

الصفقة كانت مربحة لعبد الله السليمان الذي باع ألفي صفيحة بنزين في مكة بسعر جنيه واحد لكل منها، وهو يظهر ربحا أكيدا يذهب إلى جيب الوزير عبد الله، ويبلغ مائتين في المائة، إضافة إلى ميزة الدفع الفوري مقابل دين لم يستحق .

ومع أن الصفقة في صالح السعوديين، إلا ان الإنجليز امتعضوا وبدأوا يتلاومون، ويعتبون على السعوديين بأنهم لم يوضحوا الدعم الذي يريدونه! رغم الوضوح الكبير فيما قالوه. لكن من جهة الروس فإنهم لم يكونوا مقتنعين بجدوى العلاقات مع السعوديين إذا لم يخففوا الضغط عن دخول بضائعهم الى البلاد. وفي اكتوبر 1931غادر الوزير المفوض الروسي جدة في إجازة طويلة امتدت لستة أشهر (أخذ موقعه هوريس سالكند) وأعطى الإنطباع بأن عودته الى جدة تعتمد إلى حد كبير على التقدم الذي يمكن إحرازه لإدخال البضائع الروسية، حيث ما تزال ممنوعة من الدخول إلى حد ما .

وصلت الشحنة الروسية الأولى من النفط متأخرة الى الأسواق. قيل أن السبب هو الخلاف بين المسؤولين السعوديين والأمراء مع وزير المالية عبد الله السليمان، وقد تصاعدت حدتها بعد انفراد وزير المالية بأرباح الصفقة مع الروس. أكد ذلك هوب جل في رسالة مؤرخة في 1931/11/2، حيث قال بأن هناك انقساماً خطيراً داخل الحكومة الحجازية) فالمدير العام للمالية، والذي كان خلال الأشهر القليلة الماضية المدير (الموجه (الفعلي للحجاز، قد أقيل من عمله واستدعي الى الرياض .(

انزعج المسؤولون الروس من حقيقة أن الملك ابن سعود لم يسدد قيمة الشحنات النفطية حتى نهاية عام 1931. كما انزعجوا من استمرار الحظر على بضائعهم. فقد كان هناك حظر عام على الاستيراد من روسيا، يتعايش جنبا إلى جنب مع نظام يخضع هذه البضائع التي قد تستورد رغم الحظر، إلى رسوم تعادل أربعة أضعاف الرسوم المعتادة. من الناحية العملية، تجد بعض البضائع الروسية مثل السكر وعلب الكبريت والأسمنت، طريقها إلى السوق الحجازية عن طريق مصوع وموانئ أخرى، ولكن القيود، بغض النظر عن طبيعتها المحددة، كافية لإعاقة وتعطيل هذه التجارة، لم ينجح الوزير السوفياتي المفوض في تأمين إزالتها .

فيما يتعلق بالديون المستحقة لموسكو، أمكن حلها من خلال استقطاع قيمة الضرائب المفروضة على السلع الروسية. ولكن الملك السعودي طلب من روسيا قرضاً بمليون جنيه رفض حلفاؤه الإنجليز تأمينه. وقد سافر الأمير فيصل وفؤاد حمزة إلى موسكو عام 1932 لمناقشة هذا الموضوع.. وقد كانت الشروط السوفياتية المهمة مقابل القرض، أن تفسح الحكومة السعودية المجال أمام التجارة الروسية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بدون ضرائب، على أن يكون القرض الروسي على شكل سلع، وليس نقدا كما يريد السعوديون، كما طلب السوفيات إضافة شرط عقد معاهدتي صداقة ومعاهدة تجارية بين البلدين .

سأل أندرو رايان، الوزير البريطاني المفوض في جدة، فؤاد حمزة عن زيارته لموسكو فلخص له الأمر بأن الحكومة السوفياتية عبرت عن رغبتها بثلاثة أشياء هي: رفع الحظر عن التجارة من روسيا إلى العربية السعودية، ومعاهدة صداقة، واتفاقية تجارية. كما عبرت عن استعدادها لمساعدة الحكومة السعودية بأسلوب وصفه فؤاد وصفا غامضا، إلا أن تعبيراته أوحت بأن العرض يتضمن قرضا على شكل بضائع، وبموجب اعتمادات طويلة الأجل، أو قصيرة الأجل. وقال بأن الحكومة السعودية غير راغبة بإلزام نفسها إلا لمدة قصيرة، ربما كانت ثلاثة أعوام. واعترف فؤاد بك بأن تبادل وجهات النظر في موسكو، قد أدى إلى مباحثات مستقبلية، أدت فيما بعد الى رفع الحظر المفروض، وهو الرفع الذي لم يصبح ساري المفعول بعد، لأن السوفيات تعهدوا بألاّ يبدأوا بشحن البضائع إلى أن يتسنى للحكومة السعودية فرصة تنظيم ترتيبات البيع .

وحسب تقارير المفوضية البريطانية فإنه لم يستتبع النجاح السوفياتي، كما كان يتوقع، تدفقا هائلاً للبضائع السوفياتية، بل على العكس، فقد أوقفت الحكومة السوفياتية منذ بداية شهر أغسطس 1932، حركة الملاحة من البحر الأسود، والتي كانت بواخرها ترسو في ميناء جدة مرة كل شهر تقريبا، ولم يسمع أي جديد عن الاتفاق) الصفقة) بين الحكومتين حتى نهاية عام 1932. وحتى ذلك الحين لم يُسدد الدين البالغ 30 ألف جنيه .

حين اشتعلت الأزمة والحرب مع اليمن حول المناطق الجنوبية الحدودية، ولأسباب سياسية اتهم السعوديون السوفيات اتهاماً لم يكن أقل حدة من اتهامهم لإيطاليا، بأنهم يدعمون الإمام. الدليل الذي يقوم عليه هذا الاتهام غير واضح ولا معروف لدى المفوضية البريطانية في جدة، سوى أن السعوديين كانوا يشيعون القصص والروايات الكثيرة، وهي الحكايات التي لم تتأكد صحتها، من أن سفينة روسية عبرت قناة السويس وهي تحمل الأسلحة وملحقاتها إلى الأمام .

وتقول المفوضية البريطانية في جدة أن نظيرتها الروسية مستمرة بالتظاهر بأنها أكثر اهتماما بالتجارة منها بالسياسة. كما أنها تظهر بمظهر المحروم من النفقات، كما لم يكن فيها شخصية رئيسية مشرفة عند نهاية عام 1932، باستثناء الوزير وطبيب قدم حديثا. وأضافت: (نسمع التقارير بين حين وآخر عن نشاطات شيوعية في الدوائر الإسلامية في مكة، وهناك مؤشرات أقل وضوحا عن وجود نفس الشيء في المدينة. لا يمكن القول يقينا إلى أي مدى تكون الدعاية منظمة، أو إن هي نظمت، ما إذا كانت توجه من قبل المفوضية السوفياتية في جدة أو عن طريق عملاء آخرين. ربما كانت لا تعدو أن تكون مجرد تسلل محدود للعقيدة الشيوعية داخل التعليم الديني، إضافة إلى النشاط المتفرق الذي يقوم به الهنود والمحرضون الآخرون من ذوي الميول الشيوعية .!(

لقد تبدلت لهجة السعوديين والبريطانيين تجاه الروس إلى النقيض.. ففي السابق كان الإنجليز هم الذين يثيرون ابن سعود تجاه نوايا الروس (الشريرة)!، وكان ابن سعود يقول لهم، بأن الخطر ليس كبيرا.. أما هذه الوثيقة فقد بينت المواقف بشكل عكسي. فإبن سعود، رغم الصفقة النفطية، ورغم الشروع في توقيع اتفاقية مع الروس بشأن قرض على شكل سلع بمبلغ مليون جنيه استرليني. يتهم السوفيات بأنهم يدعمون إمام اليمن ضده .والإنجليز الذين كانوا يحاولون تصيد الأخطاء الروسية ثم ينفخون فيها ويهولونها، نجدهم هنا يقللون من أهمية الصفقة النفطية والقرض المزمع عقده، ويقولون بأن السوفيات لم ينجحوا في تسريب بضائعهم للحجاز.. ويشككون بأن روايات آل سعود واتهامهم للروس بدعم الإمام غير صحيح.. وفي الوقت نفسه يشككون أيضاً بوجود نشاط روسي دعائي /سياسي ضد الإنجليز في الحجاز .

لم يقبل ابن سعود بالقرض الروسي إلا بعد رفض الإنجليز مساعدته، ومع هذا فإنه في حال تسلمه القرض، سوف يبقي على العلاقة التجارية فقط مع الروس، وأوضح للإنجليز بأنه لن يؤثر على علاقاته معهم. لقد ناشد ابن سعود بريطانيا تقديم قرض بنصف مليون جنيه ذهباً، أو مساعدته بجمع المبلغ من سوق لندن المالية، لكن البعثة البريطانية اعتذرت عن تلبية الطلب - كان ذلك في مايو 1932 - وأن الظروف غير ملائمة بالمرة لجمع قرض من سوق لندن المالية. التفت السعوديون بعدها لعواصم اوروبية اخرى، من بينها برلين، ثم عاود ابن سعود عبر يوسف ياسين المحاولة فبعث برسالة الى الوزير المفوض رايان في) 19/6/1932 جدد فيها مناشدته لبريطانيا لتقديم مساعدة مالية، ولكن على مستوى أقل بكثير من السابق، وأوضح في الرسالة أن السوفيات على استعداد لتقديم قرض له يصل إلى مليون جنيه، يقدمونها له على شكل بضائع وليس نقدا، وأنه لا يرغب في قبول هذه المساعدة، ولا يقبل بالشروط السوفياتية القاضية بأن يعقد معاهدة معهم، إلا أنه قد يضطر إلى سلوك هذا الطريق، فرغم أنه حتى ولو فعل ذلك، فإنه سيحصر المعاهدة ضمن حدود ضيقة .(

لم تحرك هذه المناشدة، ولا إغراء السوفيات وخطرهم المفتعل أية رد فعل إيجابي. كل ما استطاعت بريطانيا فعله هو تأكيد رفضها السابق المغلف بالودّ والصداقة! وهذا الفعل هو الذي أضاع على الإنجليز فيما بعد امتياز البحث عن النفط السعودي لصالح الأميركيين. كان رأي خارجية لندن حول النشاطين التجاري والسياسي الروسيين بأنهما لن يجد أرضاً خصبة في العربية السعودية لكن القرض الروسي لم يُحلّ، وانصبّ اهتمام الروس وإلحاحهم على تحصيل دينهم القديم، وكرروا الإلحاح لكن خزينة الملك فارغة، بسبب السرقات، وبسبب البذخ الذي تحدثت عنه الوثائق البريطانية كثيراً، ربما لتبرر عدم دعم السعوديين !

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأخيرا، ولمّا كان الملك غير قادر على دفع ديونه، تم الاتفاق مع الروس حول إدخال بضائعهم للحجاز ضمن صفقة تغطي قيمة البنزين والكيروسين (30 ألف جنيه). ورأى جل في رسالة له في 24 فبراير 1933 أن هذا الترتيب (سيؤثر سلباً على تجارة الدقيق القائمة منذ زمن مع الهند، وستضرب مصالح مجموعة التجار الهنود المقيمين في جدة. كما ستؤثر على مصالح شركة شل. الرأي العام المحلي مضطرب، ولكن من غير المحتمل أن يواجه الاتفاقية بمعارضة فعالة). ولكن جل قال بأنه (يمكن لبريطانيا إثارة الانتقاد الإسلامي في الهند للاتفاقية بواسطة المتضررين من أصحاب المصالح .).

نهاية العلاقات السعودية السوفياتية

كانت خيبة الروس عظيمة. فلم يستلموا حتى هذا التاريخ مليماً واحداً من قرضهم، ولم يتحقق قرض المليون جنيه الجديد. لم يحدث شيء ذو أهمية خلال عام 1934م فقد بدت العلاقات السياسية بين السعودية والسوفيات في حالة ركود تام، ولم تكن هناك أية تطورات ملحوظة في العلاقات التجارية، وجل ما كان يحدث ان الوزير السوفياتي المفوض كان يبالغ في تودده لوزير المالية أملاً في استحصال دين بلاده !

ولكن خلال صيف 1934 أرسلت الحكومة السوفياتية هدية إلى ابن سعود، هي عبارة عن جهاز هاتف آلي، ومعه خبير أو أكثر، ليبينوا طريقة تشغيله واستخدامه في قصر الملك بالطائف. وقد رافق الوزير المفوض وزوجته الممرضة الموظفين الى الطائف وارتدت زوجته غير المسلمة الحجاب، وسمح لها بالاتصال بنساء ابن سعود .

التطور الآخر خلال ذات العام، أن طائرات ابن سعود الأربع وهي عماد القوة الجوية السعودية، بقيت غير مستخدمة وفي يونيو 1934 وصل روسيان أبيضان الى جدة أحدهما طيار والآخر ميكانيكي، كانا في خدمة ملك الحجاز الشريف حسين، تعاقدت الحكومة السعودية معهما في مصر. وجد الروسيان أن ثلاثاً من طائرات وابيتي (WAPITI) التي تم شراؤها بإشراف بريطاني لم تكن بحاجة إلا إلى إطارات وبعض قطع الغيار لتعود إلى العمل. أما الطائرة الرابعة فقد تحطمت وتلفت نتيجة سقوطها، فيما استمر الروسيان يحلقان بالباقيات ويهبطان بشكل أخرق مما تسبب بعطل وعطب خطير في إحدى الطائرات. وفي نوفمبر 1934 وصل روسيان أبيضان آخران من مرسيليا وانضما الى المجموعة .

في عام 1935 عاد كريم حاكيموف الى جدة كوزير مفوض خلفاً لنظير بيك، وشرع بالإتصال المكثف بوزير المالية عبد الله السليمان الذي كان يحاول التملص من دفع الديون. والتحق في نفس العام المسيو جيرتك، تحت مسمى (الوكيل العام لتجارة الاتحاد السوفياتي) وبقي ملحقاً بالمفوضية لبضعة أسابيع بدت غير مفيدة فغادر جدة. أيضاً وفي نفس العام شهر أبريل التحقت طبيبة مسلمة روسية تدعى أمينة بخدمة ابن سعود. كما أن خبيرا تجاريا سوفياتيا يدعى (كوندراتشوف)، وهو من موظفي المعتمدية الروسية في اليمن قد زار جدة في طريقه الى بور سودان ومنها الى روسيا. ولتضاؤل النشاط الروسي كان حاكيموف يتوقع احتمال إلغاء حكومته لمنصبه في أية لحظة، هو والعناصر الثلاثة معه) شاكر اسماعيلوف وزوجته، والدكتور توكوف هوانسكي وزوجته، ومورسن وهو طبيب أسنان !

في عام 1936 وصلت العلاقات الروسية السعودية الى الحضيض، وأصبح هم حاكيموف ليس فتح أسواق جديدة في الحجاز، ولا السماح بدخول البضائع، ولا عقد معاهدة تجارية مع ابن سعود، ولا ترويج الدعاية ضد الإنجليز، وإنما استرداد الدين المستحق الذي لم يُدفع منه مليم واحد! وكان الإحتمال ضئيلاً باسترجاع المبلغ حسب حاكيموف الذي قال لزميله البريطاني إنه من حسن الحظ أن مثل هذه الأسواق الصغيرة كانت قليلة الأهمية بالنسبة لبلد ذات مداخل كبيرة مثل روسيا السوفياتية. ورغم أن المفوضية السوفياتية في هذا العام لا تجد ما تفعله إلا القليل النادر، حسب مخابرات السفارة البريطانية، فإنها أضافت إلى عناصرها سكرتيرين جديدين أحدهما قرغيزي والآخر يهودي .

الروس يستردون أموالهم !

أهم حدث في العلاقات عام 1937 هو استعادة الروس لدينهم، وقد كان غير متوقع بعد حوالي ست سنوات من عقد صفقة البترول. فقد استلمت المفوضية السوفياتية حوالة مسحوبة على بنك مصر، لتسلم دفعات شهرية تعادل واحدا من اثني عشر جزءا من الدين السوفياتي المستحق على السعودية. ومع وجود احتمال عدم توفر المال لدى السعوديين، فإن حاكيموف كان يأمل على الأقل استعادة بعض الدين، ولكن الإجراء السعودي هذا أثار البريطانيين الذين لهم ديونهم الأخرى على ابن سعود، قيمة ألف بندقية مستعملة ومليون طلقة !

ومن أحداث عام 1937، أن المفوضية الروسية أعادت افتتاح صيدليتها في شهر أبريل بعد أن بقيت مغلقة لفترة طويلة من الزمن. الطبيب الجديد، ستيبوكوف تولى ادارتها مع أنه لا يجيد إلا الروسية، وكان غارقاً بين المرضى الذين يفدون إليه وعددهم يصل الى الثمانين يومياً، أما الطبيب البريطاني فكان يستقبل نحو مائة يومياً من المرضى السعوديين !

ويقول البريطانيون أن اعضاء المفوضية الروس طوروا علاقات اجتماعية مع الحجازيين، وتعلموا العربية باللهجة الحجازية بشكل سريع، وكانت زوجة السكرتير الروسي (فتاحوف (وهي مسلمة تتحدث التركية قد وجدت في عفت زوجة الأمير فيصل مستمعة وصديقة .

أيضاً، في عام 1937، طلب ابن سعود من أصدقائه البريطانيين وعبر وزيره المفوض في لندن: حافظ وهبة، مساعدته في قضايا الملاحة الجوية، وألمح الى أنه قد يقبل بعثة جوية روسية، إن لم يساعدوه. فالملك حسب ما قاله وهبة للخارجية البريطانية (يدرك المزايا والفوائد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي قد تترتب على حصوله على مثل هذه البعثة من بلد كهولندا، أو من إحدى الدول الإسكندنافية، التي ليس لها مصالح سياسية في الشرق الأوسط. إلاّ أن تكاليف البعثة السوفياتية ستكون أقل من البعثات الأخرى بكثير. وكان الاعتقاد في بادئ الأمر أن الملك كان يفكر باستقدام روس (بيض)، إلا أن الشيخ حافظ أقسم مؤكدا أن الموضوع يتعلق ببعثة سوفياتية، وأن عرضا بهذا الشأن قد قدمته السفارة السوفياتية في باريس، حين كان الأمير سعود يقوم بزيارة إلى هناك). لكن فؤاد حمزة قال لأندرو رايان المفوض في جدة بأن الحكومة السعودية لن تقبل بذلك، وأن الروس لم يعرضوا أصلاً هذا الموضوع على الملك. ويبدو أن الأمر كله كان من أجل الضغط السياسي لتحصيل منافع اقتصادية .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com